د. عبد الرحمن بن صالح العشماوي

في وجدان القرية

(رواية)

مكتبة العبيكان

obeikandl.com

ح مكتبة العبيكان، ١٤٢٤هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

العشماوي، عبدالرحمن

في وجدان القرية. / عبدالرحمن العشماوي ـ ط٢

. ـ الرياض، ١٤٢٤هـ.

٢٠٨ص؛ ١٤×٢١ سم

ردمك: ٣ ـ ٤٩٤ ـ ٤٠ ـ ٩٩٦٠

١ - القصص العربية ـ السعودية أ ـ العنوان

ديوي ٨١٣,٠٣٩٥٣١ ١٤٢٤/٧١٧٥

ردمك: ٣ ـ ٤٩٤ ـ ٤٠ ـ ٩٩٦٠ رقم الإيداع: ١٤٢٤/٧١٧٥

الطبعة الثانية

١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م

حقوق الطباعة محفوظة للناشر

الناشر

مكتبة العبيكان

الرياض - العليا - طريق الملك فهد مع تقاطع العروبة

ص.ب ٦٢٨٠٧ الرمز ١١٥٩٥

هاتف ٤٦٥٤٤٢٤ فاكس ٤٦٥٠١٢٩

obeikandl.com

بسم الله الرحمن الرحيم

obeikandl.com

obeikandl.com

* بوَّابة القرية:

وقف أمامها كاسف البال حزيناً، يراها بعين ذكرياته عالماً آخر، له ملامحه الخاصة، ونكهته الخاصة، إنه يراها في سكونها الشّجيِّ تحيط بها هالةٌ من الأعوام المليئة بالأحداث والمواقف والذكريات، ونظر عن يمينه وشماله والتفت إلى ورائه، فرأى صورة أخرى، صورةً ذات ضجيج وبريق وحركة دائبة لاهثة، عشرات العلب الإسمنتية تتناثر هنا وهناك، وعشرات الصناديق الحديدية تنطلق سريعة عبر الخطوط «الإسفلتية» في كل اتجاه، إنها صورة «القرية» الجديدة بمنازلها، وسياراتها الجديدة، وطرقها المعبَّدة، ولوحاتها الكهربائية التي تخطف ببريقها الأبصار، ها هي ذي أعمدة الكهرباء تمتد عبر الأودية والجبال حاملةً على أكتافها «أسلاك الكهرباء» التي توصل إلى بيوت القرية المترامية وسيلة من وسائل رفاهيتها.

أسلاك الكهرباء؟ يا لها من سياج يكبِّل براءة القرية، ويرهق كاهل طفولتها العذبة... حتى العصافير، تقف على هذه الأسلاك وقوفاً جامداً يسلبها عذوبة التغريد.

ماذا أصابك أيتها القرية الحبيبة؟..

obeikandl.com

سؤال جافٌّ حزين، قفز من فمه حين عاد ببصره إلى بيوت القرية القديمة التي تلتصق ببعضها في تلاحم فريد، وكأنها تستعيذ بالله من صخب هذه المدنيَّة وضجيجها وبريقها...

القرية القديمة...

بيوت متواضعة... كلا .. بل هي شامخةُ شموخ الجبال المحيطة بها، وصلبة صلابة الحجارة التي بنيت بها جدرانها السامقة... إن أعين الناس المغموسين في أوحال المدنيَّة لترى هذا الكيان الشامخ، شبحاً من أشباح الماضي، وتنظر إليه نظرة ازدراء وإشفاق، وحُقَّ لتلك الأعين المخدوعة أن ترى القرية القديمة على هذه الحال، ألم تُعْشِها أضواء المدينة الزائفة؟ ألم تخدرها مظاهر الترف، ووسائل الراحة والاسترخاء؟..

إن القرية القديمة هي الوثيقة المجسَّمة التي تشهد بمواقف الرجولة والصبر عند آبائكم وأجدادكم أيها المخدوعون.

ماذا أصابك أيتها القرية الحبيبة؟

obeikandl.com

أعاد السؤال مرَّة أخرى مصحوباً بزفرات حرَّى لما يراه من مظاهر لهو الناس وانشغالهم وتكالبهم على الدنيا واستهانتهم بهذا الكيان الشامخ العريق.

وخطا خطوات سريعة نحو القرية، وكأنه يهرب من صخب الحياة إلى هدوء القرية التي تنظر إلى كل ما يجري نظرة المشفق الحزين...

ها هو ذا الآن يقف على ناصية «المسْرَاب»؛ ذلك الطريق الضيِّق المسقوف المظلم الذي يربط طرفي القرية، يتأمل جدرانه الصخرية التي تقوَّست ظهورها كما تقوَّست ظهور شيوخ القرية الذين امتدت بهم أعمارهم ليشاهدوا بأعينهم هذه النقلة العجيبة، بل هذه القفزة التي أخذت أبناءهم وأحفادهم بعيداً عنهم، حتى أصبحوا بينهم كالغرباء.

وإنه ليتأمل تلك الجدران المغبَّرة، والبيوت الخاوية، والسقوف المنهارة، إذْ رأى في طرف «المسراب» الآخر طيف شخص قادم يقتلع خطاه من الأرض، وعجب لهذا القادم في ذلك الوقت، وشعر بسعادة أن يرى مَنْ يفي لهذه القرية في وقت قلَّ فيه الأوفياء...

وتقدم خطوات ليتعرف على القادم ... من هو يا ترى؟ جسد طويل، ولكنَّ الانحناء قرَّبه من الأرض... إن خطواته واهنة، ولولا العصا التي يتكيء عليها لوقع على وجهه من شدة انحناء ظهره الذي قوَّسته الشيخوخة... ولما دنا منه عرفه، إنه «حمدان».

وأسرع إليه وهو يقول: «الجدّ حمدان» حياك اللَّه يا جدُّ، ما الذي جاء بك إلى هنا؟...

ورفع إليه الشيخ عينين مجهدتين وقال: جاءت بي الهموم يا بني، إني أشعر بالغربة منذ أن سافر أولادي، وانشغل الناس من حولي، وفارق الدنيا أصدقائي وإخواني، لقد روى لنا الشيخ صالح ـ يرحمه اللَّه ـ قصة ذات يوم عن هدهد سليمان أن سليمان ـ عليه السلام ـ عاقبه حينما أخطأ بأن جعله في غير جنسه من الطيور، وإنه عقاب أليم، كم هو مؤلم يا بنيّ أن تعيش مع بشر لا يشعرون بك، همومهم تختلف عن همومك، لهم آمالهم وطموحاتهم ورغباتهم، يشعرون بكل ما حولهم، إلاّ بمعاناتنا نحن الذين قدَّر اللَّه أن نبقى على قيد الحياة... وسكت الشيخ يستردُّ أنفاسه قليلاً، ثم قال موجهاً سؤاله إلى الفتى:

وأنت ما الذي جاء بك إلى هنا يا بنيَّ؟.. وأخذ الفتى بيد الرجل واتجـــه بـه إلـى «دَرَجِ المنزل القـــريب»، ذلك السلَّم المرصوف بالحجارة، وأجلسه وجلس إلى جواره وقال:

جئت ـ يا جدّ حمدان ـ لأستذكر الماضي الجميل، أستعيد صور تلك الأيام الماضيات بما كان فيها من عناء وتعب، وسعادة وصفاء، كأني أراك الآن يا جدّ حينما كنت تسوق أمامك بعد صلاة الفجر ثورين أحمرين ـ ما كان أجملهما ـ، متجهاً إلى الأودية للحرث والزراعة والسَّقْي، كنت تهزُّ الأرض هزاً، وتملأ هذه الطرقات بأصداء تسبيحك ودعائك وذكرك، هنيئاً لك يا جد لقد جاهدت من أجل الأهل والأولاد، وتعبت في تحصيل لقمة العيش الحلال، واللّه لا يضيع أجر المحسنين.

وامتد الحوار بين جيلين، ... بين عالَمين مختلفين... بين صورتين متباعدتين من الشباب والشيخوخة، وكان حواراً رائعاً شجياً، تحدّث فيه «حمدان» عن القرية حينما كانت مثل خليَّة النحل، تصحو قبل صلاة الفجر وتظل تزرع وتسقي، وتحرث، وتبني حتى تغرب الشمس، وتحدَّث عن روح التعاون والتكاتف بين أهل القرية، وعن صفات الكرم والشيَم، وصفاء الفطرة ونقاء السريرة، ثم رفع حاجبيه،وأشار بعصاه إلى البيوت

القديمة، وقال: انظر يا بني إلى تكاتف هذه البيوت، وتلاحمها، أما ترى سطح البيت يُفضي بك إلى سطح البيت المجاور؟ أما ترى المسجد يتوسط هذه البيوت؟ إنه قلبها النابض يا بني، أما الآن فقد تفرقت بيوت القرية، وتعدَّدت مساجدها، أتدري كم عدد مساجد القرية اليوم يا بني... إنها عشرة مساجد لا يصلي في بعضها إلا المؤذن والإمام، وربما صلَّى المؤذن في بعضها وحيداً، لقد تباعدت البيوت وتباعدت القلوب، واللَّه المستعان.

واسترسل الشيخ في حديث الذكريات، والفتى يصغي إليه باهتمام، يا لها من جلسة رائعة ما كان يحسب لها حساباً.. إنه الآن يعيش في عالم آخر، ينتقل مع كل كلمة يسمعها من محدّثه إلى صور القرية القديمة يراها أمامه حتى ليُخيَّل إليه أنه يعيشها حقيقة، وبينما هو كذلك يجوب ماضي القرية بذاكرته إذ وجَّه إليه «حمدان» سؤالاً مفاجئاً:

ـ كم الساعة يا بني؟ يا له من سؤالٍ مزعج قطع على الفتى ذلك الشريط الرائع من صور الذكريات .

ـ ماذا تريد من الساعة يا جد حمدان، إن الوقت طويل، بينك وبين الأذان ساعة كاملة.

ـ ساعةٌ فقط؟.

ونهض متكئاً على عصاه، وانطلق صوب المسجد.

وقف الفتى ينظر إلى ذلك الظهر المنحني، وإلى تلك الخطوات الواهنة، ثم صرف نظره إلى «الطريق الإسفلتي» الذي يشق القرية نصفين، فرأى العربات من كل نوع تخترقه بسرعة هائلة، وعاد ببصره إلى بيوت القرية القديمة، فرأى ما تعانيه من الوحشة والإهمال، ثم أعاد بصره مرة أخرى إلى «الجد حمدان»، فرآه يغوص في أزقة القرية القديمة وكأنه طيف قادم من سالف الأزمان، جلس معه قليلاً وارتحل، رأى كل ذلك فأخذ يردد:

ترى العينُ ما لا يريد الفؤادُ

ويبغي الفؤادُ الذي لا ترى

يريد الفؤاد مكان الثريّا

ولا تلمح العينُ إلا الثرى!

ألا أيُّها القلب هذا زمانٌ

يُباع الكريم ولا يُشترى

وظل صامتاً لحظة من الزمن محمَّلة بالهموم .. ثم انطلق متجهاً إلى المسجد، عبر ذلك «المسراب» الضيق، الذي يُعدُّ

بوَّابة القرية من جهتها الشمالية الشرقية، بل إنَّه، بوَّابة تنقله إلى عالم الذكريات....

الليل يبرز على حقيقته، ظلامه الدامس، نجومه وكواكبه المتلألئة، قمره الساطع، هلاله الذي يبدأ وينتهي كالعرجون القديم.

الفجر يأتيك كما هو صافياً نقياً، ضاحك الثغر مشرق الوجه، يطلُّ عليك من الأفق الشرقي كصديق حميم يبوح لك بما في فؤاده من الحب العظيم.

الشفق ذلك اللون الأحمر البديع، يعطيك لونه الحقيقي بعيداً عن التحوير والتزوير، يمتد أمامك قطعاً حريرية رائعة.

النَّدَى والزهور، والأغصان، تبرز أمامك صبيحة كلِّ يوم محمَّلة بأنفاس السَّحَر؛ ذلك الوقت المميَّز من الليل الذي يصبغ الكون كلَّه بصبغة عجيبة من الهدوء والصفاء.

الضحى هو الآخر له طعمه الخاص وسماته التي تميِّزه عن سواه..

أما الظهيرة فهي عالم آخر تمتزج فيه حرارة الشمس المعتدلة ببرد النسيم العليل، وتتعانق فيه أشعة الشمس مع أغصان الأشجار عناقاً يرسم على الأرض الخضراء ظلاً ظليلاً، لا تستطيع أن تصفه الكلمات.

التراب، والصخور، وجذوع الأشجار، والعصافير، وأصناف الحيوان الأخرى كلُّها تطلعك على حقيقتها دون تزويق.

لن تستطيع أن ترى ذلك كله رأي العين، إلا إذا كنت واحداً من أهل تلك القرية التي تخيط لها من أشعة الشمس ثوباً من البراءة والنقاء ترتديه صبيحة كل يوم، ولا تخلعه إلا إذا لبست ثوبها الآخر الذي تخيطه من أديم الليل الموشَّى بالكواكب والنجوم.

إنها قرية «عراء» المتشبِّثة بـ «حمى ظبيان»؛ الجبل الذي يضم القرية بين ذراعيه منذ مئات السنين.

لهذه القرية تميُّزها بين القرى الأخرى، ليس هذا التميُّز في أبنيتها، ولا في طبيعتها، فأشكال البيوت فيها وفي القرى المجاورة واحدة، والطبيعة واحدة، ولكن تميُّزها يكمن في بعض ما شهدته من أحداث ومواقف، وما سعدت به من مجالس علمية أقامها عدد من الشيوخ والدعاة الذين استأنسوا بها واستأنست بهم بعد قدر لا بأس به من المشقة والعناء.

هذه البوَّابة الكبيرة للذكرى تحيط بها صورٌ كثيرة مختلفة الأشكال.. والألوان، صورٌ سعيدة وأخرى شقية، صور صافية وأخرى عليها ما يشبه الغمام من تعاقب الأيام، هذه البوَّابة

obeikandi.com

الكبرى إذا فتحت سمحت لعينيك أنْ ترى القرية، مسجدها العتيق، بيوتها القديمة المتعانقة عناقاً يوحي إليك بحب كبير، أزقتها الضيقة المتداخلة، شرفاتها المزينة بالمَرْو الأبيض، مزارعها المتدرجة من أعلى الجبل إلى أسفله في شكلها البديع، آبارَها الممتلئة بالماء الصافي، أغنامَها، أبقارَها، جمالها، سواقيها، أوديتها، أشجار العرعر والزيتون البري والطلح واللوز والتفاح والمشمش والخوخ والحماط، والتين الشوكي..

صخورها الضخمة الصلبة، نباتاتها العجيبة الغريبة: «البقلة، والعُثْرب، والطُبَّاق، والحُرّاق، والقُرَّاص».

أما عصافير القرية فإنها تقيم كل صباح مهرجاناً رائعاً للتغريد، بأصوات لا يملك من يسمعها إلا أن يهتز طرباً ويردد في سعادة غامرة «سبحان اللَّه العظيم»! ولو قدر لك أن تتكىء قبل طلوع الشمس على جذع شجرة «السِّدر» الضخمة التي تزين واجهة القرية الشرقية وتقف وحدها شامخة متعالية، لسمعت أصداء ذلك الحفل الصباحي الكبير الذي تقيمه طيور «الفَرْفَر» بأصواتها النديَّة وزقزقتها المثيرة حيث تحوِّل «السدرة» إلى مسرح للشدو قل أن تجد له نظيراً.

ثم لا تلبث إلا قليلاً حتى تهدأ الأصوات، ثم تسمع رفيف أجنحة العصافير، وترى أسرابها تنطلق من أعشاشها في صورة رائعة، وتسمع أصداءً تنساب إلى نفسك من أفق نبوي كريم، تتردَّد مع البكور ورفيف الأجنحة وحفيف الأشجار: «لو توكلتم على اللَّه حق التوكل لرزقكم كما يرزق الطير، تغدو خماصاً وتروح بطاناً».

ولو سمحت لنفسك أن تستكمل هذه الصورة البديعة، فأخذت مكانك من جذع الشجرة قُبيل الغروب لسمعت أصداء ذلك المهرجان الرائع للتغريد، حين تأوي تلك الطيور إلى أعشاشها بعد رحلة يوم كامل في طلب الرزق، حتى إذا ما تدَّثرت القرية برداء الغروب، هدأت تلك الأصوات، فما تسمع بعدها إلا حفيف أغصان تلك السِّدرة وكأنها تستكمل ـ في هدوء ـ وقائع ذلك المهرجان الفريد، أو كأنها تهدهد تلك الأسراب من العصافير التي تأوي إليها كل مساء، وحينها تردِّد في يقين «سبحان اللَّه العظيم»!

كل هذه الأشياء تراها حين تفتح بوَّابة الذكرى الكبيرة بمفتاح الشوق لتطلّ منها على ذلك العالم البديع.

أما إذا أصخت سمعك وقت الصلاة، فسوف تسمع صوت مؤذن ينطلق رائعاً ندياً يلامس شغاف قلبك فلا تملك إلا أن تجيب داعي اللَّه.

إنه صوت ذلك الرجل الذي يحب القرية وتحبه، تأنس بصوته حين يؤذن، وتصغي في لهفة إلى مناجاته لربه بالدعاء والتسبيح والتكبير حينما يخترق أزقتها في الغدو والرواح.

هل تأنس المواقع إلى ساكنيها؟! إنَّ أجواء القرية تكاد تحلف لك بيمين لا تحنث فيها أنها تأنس ـ كل الأنس ـ إلى ذلك الرجل التقيّ الوقور.

«سبحان اللَّه»!.. ما أروع هذا النسيم وما ألطفه، وما أجمل هذا السَّحَر وما أطيب أنفاسه... يا لها من ساعة يغفل عنها الغافلون.. اللَّهم إني أسألك من خير ما سألك منه نبيك محمد ﷺ، وأعوذ بك من شر ما استعاذك منه نبيك محمد ﷺ، سبحانك يا من تبسط يدك في هذا الوقت من الليل وأكثر عبادك يقبضون أيديهم عن فضلك العظيم...

«اللَّهم إنا نسألك من فضلك» تحية لهذا الديك الذي يرفع صوته مسبحاً للَّه، والناس نائمون...

obeikandi.com

كان «محمد علي» في الثلث الأخير من ليلة الجمعة في أحد شهور عام ١٣٧٢هـ يردِّد هذه الكلمات، وينثر في أجواء منزله الحجري المتواضع تسبيحه وتهليله وتكبيره..

ومحمد علي هذا، رجل وقور ذو سمت وخلق حسن وحب للخير جعله مضرب مثل لأهل القرية، وله من صدقه وأمانته ما جعله أهلاً لثقتهم وحبهم وتقديرهم.

قبل أن تنفض القرية عن أهدابها آثار الظلام، وقبل أن يرفع الديك صوته منادياً للنيام، كان محمد علي يجلس في مُصلاَّه في «علّيته»، تلك الغرفة الصغيرة المتشبثة بزاوية من منزله الصغير، يصلي ما يشاء له اللَّه أن يصلي، ثم يرفع كفيه إلى السماء في دعاء طويل، ثم يستغرق بعد ذلك في لحظات مخصبة من التفكر في ملكوت اللَّه، والتأمل في هذا الكون العجيب.

لم يكن محمد علي متعلماً، بل هو رجل أمي لا يعرف القراءة، ولا الكتابة، ولكن المتعلمين في قريته ـ وهم قليل ـ يعجبون من كثرة ما يحفظ من الأدعية المأثورة، ومن حفظه لعدد من سور القرآن الكريم حفظاً جيداً، كما يعجبون من موافقته للسنَّة الصحيحة في كثير من حركاته وسكناته.

وكان محمد علي رمزاً حياً في قريته، فهو مؤذن المسجد، ولأذانه طعم خاص، إنَّ صوته الجميل لينساب إلى القلوب انسياباً، كثير من الناس في القرى المجاورة يقولون: إننا نصحو لصلاة الفجر على صوت «محمد علي» ... لم تكن المساجد تعرف من مكبرات الصوت شيئًا، القرية تنام في الظلام، فلم تكن الكهرباء قد دبَّت في عروق القرية آنذاك.

الكهرباء؟؟ ماذا تعني هذه الكلمة؟ لم يكن أحد من أهل القرية يعرف عنها شيئاً.. سوى رجل سافر إلى الحبشة وعاد يخبر الناس عن قناديل تضيء المنازل والطرقات دون أن يكون لها وقود.. وكان أهل القرية يتغامزون ساخرين بالرجل، وهم على يقين أنه قد ابتلي بالأكاذيب.

قال ذلك الرجل لأهل القرية ذات يوم: لقد رأيت في سفري هذا آلة لها سَيْرٌ طويل تشتغل، ويوضع فيها القمح فتطحنه في وقت قصير.. ورد عليه أحدهم قائلاً : يبدو أنك قد استغرقت في نوم طويل رأيت فيه أحلاماً كثيرة، فأنت تقص علينا شيئاً منها .... نحن نظل ندير الرحى بأيدينا الساعة والساعتين والثلاث حتى نطحن قليلاً من القمح، وأنت تقول إن هنالك آلة تطحنه في لحظات؟! إن أمرك لعجيب،

وانتهت الجلسة بضحكات عالية من الجالسين، وشعورٍ بالأسى في نفس الرجل على هذا الانقطاع الكبير بين عقول جماعته وقفزة التطوّر المدني التي رآها هناك.

كان صوت مؤذن القرية «محمد علي» سمةً من سماتها البارزة، وكم من متكاسل عن الصلاة نشط إليها عندما لامس سمعه صوت المؤذن التقيّ.

ـ هنيئاً لك يا أبا أحمد، يدعو لك كل شيء يصل إليه صوتك، وتبعث يوم القيامة مع المؤذنين وأنتم أطول الناس أعناقاً.

ـ رحمك اللَّه يا أبا علي، إننا مقصرون في جنب اللَّه، وإنما ننتظر رحمة اللَّه التي وسعت كل شيء...

بعد أن أتم صلاته وتسبيحه خرج إلى «سُدّة» منزله وتأمل الأفق قليلاً ... ثم رفع صوته منادياً:

ـ يا أم أحمد... يا أم أحمد. هيا إلى الصلاة، أيقظي الأولاد، اذكري اللَّه، واتجهي إليه بالدعاء، لكأني أرى أبواب السماء مفتوحة تستقبل دعاء المؤمنين...

واستيقظت أم أحمد، وتحوّل سكون المنزل إلى حركة دائبة.

obeikandl.com

ذلك شأن المنزل السعيد «المتواضع» نشاط إلى الطاعة، وسعيٌ دائب في تحصيل الرزق الحلال.. يستيقظ أهله مع الفجر... يشاهدون يومياً كيف يفيض نهر الضياء منساباً عبر الأفق إلى بقاع الأرض، ويرون كيف تتكشف سجف الظلام عن وجه الشمس المشرق، بل إنهم كثيراً ما يرون هذه الصور الرائعة لانسلاخ النهار من الليل وهم في الوادي القريب من القرية «الشِّعب»؛ هذا الوادي الصغير الذي يضرب المثل به في الخصب والعطاء والبركة، كما يضرب المثل بصاحبه «محمد علي» في الورع والتقوى.

في صبيحة يوم الجمعة هذا كان صدر «محمد علي» منشرحاً، وكان هذا الانشراح يفيض على وجهه القمحي إشراقاً وصفاءً، وعلى ثغره ابتساماً، وعلى حديثه رونقاً وبهاءً، ليست هي المرة الأولى التي ينشرح فيها صدر هذا الرجل التقي، بل إن من صفاته التي يعرفها الناس الانشراح، «ومن يرد اللَّه أن يهديه يشرح صدره للإسلام» نعم ليست هي المرة الأولى التي يظهر فيها انشراحه، ولكنَّ انشراحه في هذا اليوم كان لافتاً للنظر.

- يا أبا أحمد ... إني أراك منشرح الصدر في هذا اليوم المبارك انشراحاً يثير الإعجاب.

ابتسم قائلاً:

- يثير الإعجاب - يا أم أحمد - أم يثير التساؤل؟!

وطال الحوار بين الزوجين المحبين، وهو حوار على عادته يفيض بالحب الكبير الذي يجمع بين قلبيهما.

وقد روى لها تفاصيل رؤيا جميلة رآها في منامه تلك الليلة، ولم يعكِّر صفوه إلا تلك السحابة من الحزن التي غام بها وجه أم أحمد بعد أن علمت بعزم زوجها على السفر.

* * *

كان الجو معتدلاً أحسن ما يكون الاعتدال، حيث كانت نسائم الربيع ما تزال تنعش القرية المتكئة على «حمى ظبيان»، ذلك الجبل الساكن الوقور، لم تهبّ بعد رياح الخريف بجفافها الذي يترك آثاره شقوقاً على وجوه الناس وأيديهم وأرجلهم، وكانت الشمس قد أتمت رحلتها اليومية المعتادة ووقفت محمرَّة الوجه على جسر الغروب تلقي على القرية الوادعة نظرتها الأخيرة، نظرة الوداع الشجيّ التي تتكرَّر كلَّ يوم، أما طرقات القرية فقد

obeikandl.com

كانت تسيل بمئات المواشي من أغنام وأبقار، تتجه نحو مراحها بعد أن أمضت يوماً مخصباً في مراعي القرية الخضراء.

وهناك في باحة الدار الصغيرة تسمع خَضْخَضَةَ الماء في ذلك الإبريق المصنوع من جلد البقر والذي يسمّونه «الرَّكْوَة»، وتسمع نحنحة «محمد علي» وتسبيحه وذكره للَّه وهو يتهيَّأ للوضوء.

ـ يا أم أحمد لا تنسي أن تزيدي في عشائك الليلة، فقد رأيت بعد صلاة العصر رجلاً غريباً جالساً في المسجد، وسألته عن حاله فأخبرني أنه عابر سبيل وأنه يريد مكة، إنَّ حالته تثيرالشفقة يا أم أحمد.

ـ معنى ذلك أنك قد دعوته للعشاء؟

ـ نعم، أنت تعلمين أننا بحاجة إلى شيء نقدِّمه لأنفسنا لنجده في ذلك اليوم الذي لا ينفع فيه مال ولا بنون.

ـ نعم يا أبا أحمد، ولكنك تعلم أن الزاد قليل، وأن ثمرة «البلاد» هذه السنة لم تكن على ما يُرام.

ـ أعرف ذلك، ولكن اللَّه سيبارك!

ذهب إلى المسجد مهلّلاً مكبراً، وانصرفت أم أحمد إلى عجينتها لتزيد عليها شيئاً من الطحين.

obeikandi.com

لقد تعوَّدت أن يستضيف زوجُها الفقراء والمساكين وعابري السبيل وهي راضية بذلك كل الرضا، إنها تحب عمل الخير، ولها فيه قصص عجيبة يتناقلها أهل القرية، فكم من صدقة قدَّمتها لمحتاج بيمينها لم تعلم عنها شمالها، وكم من ثوب أهدته لامرأة محتاجة دون أن يعلم بذلك أحد، ولكنَّ أمَّ أحمد برغم ذلك كله تدخل أحياناً في خصام طويل أو قصير مع زوجها حول هذه الاستضافات التي لا تنقطع.

ـ أليس في القرية إلا أنت يا أبا أحمد، ليس لدينا الليلة طعام يكفينا، وأنت تعلم ذلك، فلماذا أتيت بهذا الرجل معك؟.

وابتسم أبو أحمد قائلاً :

ـ سأتنازل للضيف عن نصيبي من الطعام هذه الليلة.

وصرفت عنه وجهها مغضبة وهي تقول:

ـ عجباً لك تريد الخير والأجر لك وحدك، أترك للناس شيئاً يا رجل..

ولم يجب، بل ظلَّ صامتاً هادئاً حتى التفتت إليه بعد أن يئست من حديثه وتلاقت عيناهما، وظلَّتا تتحدثان حديثاً صامتاً رائعاً.

obeikandl.com

ـ الحـــمـــد للَّه الذي أنعم عليَّ بكِ يا أم أحـــمـــد، وأرخت جفنيها دون أن تجيب..

ـ كلما غضبت كان حديثك أكثر سحراً وجمالاً، أنت رائعة، أنت سيدة نساء قريتنا، أنت..

ورفعت بصرها إليه وتركت لعينيها الحديث، وبعد لحظة صمتٍ لم تكن قصيرةً قال لها:

ـ أسأل اللَّه يا أم أحمد أن يحيينا حياة طيبة، وإذا قدر علينا الموت أن يميتنا معاً حتى لا يحزن أحدنا على الآخر.

ـ آمين.

وابتسم لها وهو يقول:

ـ إذن فقد رضيت الحبيبة عن حبيبها.

ـ وكيف لا أرضى عنه وهو لا يأمرني إلا بما فيه طاعة اللّه.

* * *

كانت ليلة الوداع حافلة بالحديث عن الذكريات، القرية نائمةٌ هادئة بعد يوم من العمل الدائب... الحرث، سقي الزرع بالسواني، رعي الأغنام، جلب الماء من الآبار إلى البيوت، ذَبْحُ «الشِّرْكَة» وتقطيعها وتسْديَتُها، ثم توزيعها على المشاركين فيها...

obeikandi.com

وللشِّرْكة هذه طعمها المتميِّز، تظل بعض الأسر الشهر والشهرين والثلاثة وهي تتطلع إلى أن تشترك مع أهل القرية في ذبح بقرة أو ثور لتنال بذلك شيئًا من اللحم، وإذا نالته كان له عندها طعم متميز وقيمة كبيرة، وهي صورة واحدة من عشرات الصور التي يتجلّى فيها تلاحم أهل القرية، وتعاونهم.

كانت ليلة الوداع حافلة بأحاديث الذكريات السعيدة والحزينة القريبة والبعيدة، كما كانت حافلة بعبارات الحبّ الصادق والشوق واللَّهفة المشوبة بالحزن والأسى للفراق الوشيك..

ولم تجبه، ولكنَّ دموعها أجابته، كاد يبكي، ولكنه تجلَّد وقال:

ـ أيتها الزوجة الحبيبة، كلُّها أيام وأعود إليك ـ بإذن اللَّه ـ إذا كنت الآن تستشعرين فظاعة الفراق، فتذكري روعة اللقاء عما قريب..

وطال بينهما الحديث حتى استغرق أكثر الليل، ووقف بهما على شرفة السَّحَر الحالمة.

* * *

لم تكن «أم أحـمـد» فـتـاة كـغـيـرهـا من فـتـيـات الـقـريـة، لقـد نشأت في بيت «القاسم» الكبير، هذا البيت العريق الذي أنجب عـدداً من الرجـال الأبطـال والنسـاء المتـمـيـزات، إنه «صـحـن غـامـد» كمـا يقـولون لأنه بيت كرم، وله عـلاقـاته الممتدة عـبـر القـرى المجاورة، بل إنَّ عـلاقـات المصاهـرة والصداقة والمحالفة قـد تجـاوزت القـرى المجـاورة إلى قـرى بعـيـدة في الحـاضـرة والبـادية، وكمـا أن هـذا البـيت مميَّـز برجالـه ونسائه فهـو مميَّـز ببنائه الضـخـم، إنه يقع في واجـهـة قـرية «عـراء»، يعـتلي ظهـر الأرض بثـلاثـة طوابق، مع كـونه على مـوقع مـرتفـع، وله دَرَجُـه الفسيح، درج تألفه أرجل الضيوف الذين لا ينقطعون عنه، وهو درج يُفـضي إلى فناء واسع يُسـمَّى «الجَـريـن» أي باحـة الدار، وهذا الفناء يزدحم بـأهل البـيت صـغـاراً وكـبـاراً كـمـا يزدحم بالأغنام والأبقار، وقـد خُصّصت ناحيـة منه مَـراحـاً للجـمل، ولجـمل القـاسم عند الناس مكانة خـاصـة، فـهـو الذي يحـمل متـاعـهم إذا احـتـاجـوا، وهـو الـذي يحـمل العـروس في هـودجـهـا المزيَّن حـينمـا تُزَفُّ إلى بيت زوجـهـا، وهـو الذي يحـمل حُـزَمَ الحنطة والـذرة بعد الحـصـاد من الأودية المحـيطة بالقـرية إلى «الجُرُن»، والجـرُنُ أفنيـة مُـجـهـزَّة ليُـداس فيـهـا القـمح بواسطة الثـيـران التي تجـر «الخَـوْرَم»، ذلك الحـجـر الكبـيـر الذي يُربط

بحبل مشدود إلى خشبة محمولة على عنق ثورين تُسمى «المِقْرنة»، إن القرية تحب جمل «القاسم» هذا، وتطرب حينما تسمع هديره ورغاءه، وإنها لتنظر إلى بيت القاسم نظرة خاصة ملؤها الإعجاب والتقدير لهذا البيت الكبير.

نشأت «أم أحمد» في هذا البيت فتاة رائعة الجمال، راجحة العقل، كريمة الطبع، يزين ذلك وقارٌ وتجلّله مهابة يشعر بها كل من رآها، وفتاة بهذه الصفات ستكون محط الأنظار.. لقد طلب يدها أكثر من رجل، ولكن أعمامها وإخوتها ما يزالون ينتظرون الرجل الذي يليق بها.

كان الشاب «محمد علي» من بيت له أيضاً مكانته في القرية، صحيح أنه لم يكن في حجم بيت القاسم ضخامة وعدداً، ولكنه كان بيتاً ضارباً، أنجب رجالاً أشدَّاء تعرف القرية لهم قيمتهم ومكانتهم، إنه بيت «آل سحَّاب»، وقد نشأ «محمد علي» في هذا البيت مع إخوانه من أبيه نشأة العمل الدؤوب المضني، زراعة وحصاد، ، وسقاية للزرع بالسواني، مع ما يصحب ذلك من ترميم مستمر لجدران المزارع المبنية بالحصى، إن العناية بالمزارع التي يسمِّيها أهل القرية «البلاد» تحتاج إلى جهد كبير.

كـان «أحـمـد سـحَّـاب» عـمـيـد هذا البـيت صـاحب دين وصـلاح، وقد ورث مـحـمد علي عن أبيـه هذه الصـفة، وتهـيّـأ له من مـجـالسـة الدعـاة، و«المطاوعـة» مـا لم يتـهـيّـأ لوالده، وهو مع ذلك رجل شـجـاع نشـأت بينه وبين «الوادي» المسـمَّى «شـعب آل سـحَّـاب» ألفَـة ومـودة راسـخـة، حـتى عـرفت القـرية مـحـمد علي بالشِّعب، وعرفت الشعب به.

لم يكن الشِّعب كبيراً، إن مسـاحته صغيرة جداً ولكن تربته خصـبـة، وبئـره الصـغيـرة «الـكُرّ» معطاءة لا تنقطع، ولذلك فـهـو مضـرب مثـل للخـصب، وثمـرته من خـيـرة الثـمـار، وقـد أعطاه «مـحـمد علي» من حُبِّـه وجـهده، وسـقـاه من عـرقـه، فـزاده ذلك خـصـبـاً ونمـاءً، وتميَّـزت هـذه العـلاقـة الحـمـيـمـة بين الرجل وشِعْبـه تميُّـزاً يعـدُّه أهــل القـرية سـبـبـاً لنزول البـركـة فـيـه، إنهـا عـلاقـة وجـدانيـة خـاصـة، فـمـا تكاد تقع عين القـادم على هذا الوادي حتى يرى «محـمـد علي» في حـالتين، إمـا أن يكون في حــركــة دائبــة مســتــمــرة يبــذر الحــبـوب، ويعــزق الأرض ويصـرف المـاء إلى «القِصَـاب»؛ وهي الأحـواض التي يُعنى بهـا أشد العناية، وإما أن يكون متجهاً إلى القبلة يصلي في خشوع وإخبات.

لقد تعوَّد «الشِّعب» على صاحبه، واستأنس به، وبتسبيحه وذكره ودعائه، ولو نطقت أشجاره وأحجاره لقالت عن الرجل: ما يحسن بمحب أن يقول عمَّن يحب؟!

كان الشاب «محمد علي» يرنو إلى شرفات بيت القاسم بعين تبحث عن أمل قادم جميل إنه يمر بهذا البيت صباح مساء، حينما يسرح إلى الوادي صباحاً مع إشراقة الشمس، وحينما يروح إلى البيت مع غروبها، إنَّ المسْرَاب (السرداب) الذي يمرُّ من تحت بيت القاسم ليصل طرف القرية الشمالي الشرقي بطرفها الآخر هو الطريق الذي يسلكه محمد علي كل يوم.

لقد كان يشعر بشعور غريب كلما لاحت له شرفاتُ هذا البيت، وكان يشعر بروح من الدفء تسري في عروقه حينما يسلك ذلك «المسراب»، إن القلب ليخفق هنا خفقاناً لذيذاً جميلاً، فلماذا يا ترى؟.

سأل نفسه ذات مرة: هل ستصبح زوجةً لي؟ يا له من سؤال كبير، وأنَّى له ذلك وقد سمع أنَّ رجلاً سريّاً ثريًّا قد تقدَّم لخطبتها؟

كان الأمل ضئيلاً، ولكن زواجها من غيره أمر فظيع من الصعب عليه أن يحتمل وقْعه الخطير.

لم ينم تلك الليلة، كان قد استسلم لشعور فيَّاض أحاط بنفسه من كل جوانبها، إن «مسفرة» وهذا اسم الفتاة، جوهرة غالية إنها تستحق أن يسهر من أجلها الليالي الطِّوال، وفي اليوم التالي سمع القصة:

لقد اختلف أعمامها وإخوتها في أمر زواجها من ذلك السريّ الثريّ، بل إن أحدهم قد بعث إلى ذلك الرجل من أخبره برفضهم طلبه وشعر «محمد علي» برعدة تسري في جسده، وتساءل:

لماذا لا أتقدم لخطبتها؟ وبعد لحظات من التردُّد وجَّه عمته إليها ليعرف رأيها.

في ذلك اليوم نسي «محمد علي» الشِّعب، فقد ظلَّلته السعادة بعد أن أخبرته عمته أن «مسفرة» لا تعدل به سواه، إذنْ فلتكن الخطوة التالية.

لم تؤذِّن الشمس بالمغيب حتى سمع القصة كاملة، لقد اختلف عليه أعمامها وإخوتها كما اختلفوا على الذي قبله، منهم من يرى أن يزوجوها بذلك السريّ الثري، ومنهم من يرى أن يزوجوها «بمحمد علي» فهو ابن القرية، يعرفون «مدخله ومخرجه».

اضطربت نفسه وأخذ يتمتم «يا إلهي.. أي الفريقين سينتصر؟ وتظلُّ هواجسُه ومخاوفه تُلحّ عليه حتى يكاد اليأس يطغى على قلبه وعقله، وإذا تذكر حالته المادية المتواضعة شعر ببعد المسافة بينهما.

كان من عادته بعد كلِّ صلاة أن يُطيل المكث في المسجد، بل إنه آخر من يخرج من الجماعة، وفي تلك الليلة قرَّر أن يظل في المسجد ما بين المغرب والعشاء، إنه لا يريد أن يتعشَّى بالرغم من إحساسه بالجوع الشديد، وكيف لا يجوع من يقضي يومه في العمل المضني زراعة وسقاية ورعياً؟

رفع يديه إلى السماء يدعو: «اللَّهم أسألك أن تختار لي الخيرة الطيبة»، وما كاد يُتم دعاءه حتى سمع خطوات قادم، ثم سمع صوت عمته تناديه «محمد علي»، وهبَّ من مكانه مسرعاً ولم يكد يسألها حتى قالت:

إن «مسفرة» لا تريد سواك، وقد اشتد الخلاف بين أهلها فهربت إلى بيت «آل يحيى» خوفاً من بطش عمها الذي ما يزال مصراً على تزويجها من ذلك السريّ الثريّ. أرخى رأسه مستغرقاً في لحظة صمت محمَّلة بالتفكير، ثم رفع يديه إلى السماء ودعا: «اللَّهم إنا نسألك خير ما في الغيب، اللَّهم احفظها وارعها واكلأها بعينك التي لا تنام».

obeikandl.com

مـرت أَسـابيع ثـلاثة، طوال ثقـال، والفتـاة لاجئـة «دخـيلة» عند آل يحيى، ليلها طويل، ونـهارها ثقيل، وقلبها يئن من وطأة الحـزن والأسى، ولولا مـا لقيـتـه من رعـاية وعناية أهـل ذلك البيت الذي لجأت إليه لأودى بها حزنها العميق.

وفي صـبـيـحـة يوم شـتـائي قـارس البـرد، كـثـيف الضَّبـاب، متراكم السحاب، كانت الفتاة «مسفرة» فيه أعمق حزناً، وأكثر همَّاً وغمَّاً، سمعت صوت امرأة تتحدث إلى بعض نساء البيت، واهتزَّ قلبها، إنه صوت أختها «صالحة»، لقد ثارت في وجدانها مشاعر غزيرة متشابكة ومرَّت ـ في تلك اللحظة ـ بخيالها مئات الصور من حياتها الماضية الموزَّعة بين الفرح والحزن، والراحة والتعب والرِّضا والغضب، وإنها لفي غمرة التأمل الشجيّ لتلك الصور إذ دخلت عليها أختها، وكان بينهما ما يكون بين أختين طال بينهما الفراق، وعصفت بحياتهما الأحداث.

ـ لقد تغيّرتِ كثيراً يا «مسفرة»، إن أثر الحزن على وجهك لواضح يا حبيبتي.

ـ نسيت يا صالحة ما يردده أخوك «عوضة» في أسفاره:

«والهمُّ إذاعلَّق بقلب إنسـان شَـبَّـه»، إن الهم يشبُّ قلب المهموم يا صالحة كما تُشبُّ النار.

ـ ولكنّ الأمر الآن قد وصل إلى خير.

كيف؟ أخبريني ياصالحة، بشّريني ولك عندي البشارة، وابتسمت أختها قائلة:

ـ لقد سمعت أعمامي وإخوتي وعمَّاتي وبعض أقاربنا يناقشون أمرك البارحة ويلوم بعضهم بعضاً على ما جرى، وعلى تركك دخيلة عند أهل هذا البيت الطيِّب، ولعلهم قد اتفقوا ـ كما أظن ـ...

وقاطعتها مسفرة:

ـ على أي شيء اتفقوا، عجِّلي بالخبر يا صالحة.

ولم تجب صالحة، بل تركت لأسارير وجهها الصَّبوح ولابتسامتها الحانية أن تجيب.

وساد الصمت بين «الشقيقتين لحظةً من الزمن، كانت خلاله ملامح وجه «مسفرة» تنفرج، ووجهها القمريُّ يشرق حتى كاد يتحدث إلى أختها بلسان البهاء والجمال...

ـ صالحة، تحدثي، هل هناك ما يسرُّ.

ـ نعم يا مسفرة، أبشري، إن مع العسر يسراً.

قاطعتها أختها قائلة.

ـ عجباً لك يا صالحة، تحدَّثي أخبريني هل انتهت المشكلة.

ـ انتهت وربما تغادرين هذا البيت إلى بيت أهلك هذا اليوم...

وعاد إلى وجه «مسفرة» حزنه، وظهر على ملامحها الغَمَّ وغامت فيه سحائب الأسى، حتى إن أختها ارتاعت لهذه السحب المتكاثفة من الغم التي لاحت في وجه أختها بعد أن أشرق بالفرح لحظات.

ـ ماذا أصابك يا أختاه؟ هذا خبر مفرحٌ فلماذا تحزنين؟

ـ كيف لا أحزن يا أختي وقد عانيت ما عانيت، أوَّاه من قسوة اليُتْم يا صالحة، منذ مات أبي وأمي ـ رحمهما اللَّه ـ ونحن نعاني، ونعاني، نعيش على المداراة لأهلنا وأقاربنا، ومع ذلك لا نسلم من اللوم والعتاب والتقريع، بل والضرب.. أمَّا رأينا فلا مجال لطرحه أصلاً، فكيف يكون هنالك مجال لقبوله؟! إني أشعر أن الرياح تسير دائماً في اتجاه معاكس لنا، العبء علينا في البيت، أو في الوادي أسألك باللَّه يا صالحة، هل رأَيْتِني يوماً من الأيام فارغة من عمل، وأنت هل تحققت لك الراحة... أنا لا أذكر أني رأيتك خالية من عمل شاق مُضن

obeikandi.com

يا أخيّه، اللّهم إلا أوقات النوم التي لابد منها... اسألي عنا الرحى التي تشققت أيدينا ونحن نديرها.

أسألي الملّة التي تلوّحت وجوهنا بلهيب النار التي نشبُّها فيها، اسألي الغنم، اسألي البقر، اسألي الجمل، ستحدثك عن معاناتنا الحقيقية، عن هذه الحياة المضنية المتعبة، كانت كلمات «مسفرة» مؤثرة قوية، وكانت العَبرة تخنقها أحياناً وهي تتذكر بعض ما جرى لها... ولم تسكت إلا حينما نظرت إلى أختها فرأت أنها مستغرقة في البكاء، وقد سالت دموعها غزاراً إنها تتابع شريطاً من الذكريات المؤلمة، وهيمن على الأختين البائستين جوٌ من الحسرة العميقة... وأظلمت الدنيا في عينيهما، وتمكن اليأس من قلبيهما في تلك اللحظة الشاحبة، وما أنقذهما إلا دخول «أم محمد» صاحبة البيت، حيث بادرتهما ـ وقد هالها ما رأت على وجهيهما من معالم الأسى واليأس ـ بقولها: ماذا دهاكما؟ مالي أراكما شاحبتين وكأن الدنيا قد انتهت، والأمل قد مات، والحياة قد توقفت؟!.. وبعد لحظة صمت قالت مسفرة:

ـ أبكي حالتي وحالة أختي يا أم محمد، إني أشعر أن الحياة لا قيمة لها ولا طعم، إن اليتم قد حطَّم حياتنا.

ـ ما هذا الكلام يا مسفرة، الدنيا لا تدوم على حال، ومثلك لا يناله اليأس، لا تنسي أن مع الصبر الفرج.

ـ ولكن الصبر قد طال يا أم محمد، ولم يأت الفرج، إني أرى قيمتي بصفتي إنسانة تتضاءل عند أهلي، بالرغم من عنائي وتعبي في خدمتهم أجدهم يقفون في وجهي حينما عبَّرت عن رغبتي، إنهم يقتلون بقايا الأمل في نفسي.

ـ هوّني عليك يا مسفرة، واللَّه لقد عانيت من اليتم والعناء أكثر مما عانيت، ومع هذا فقد سخَّر اللَّهُ لي «أبا محمد» عمك يحيى حفظه اللَّه، فعوّضني عن كل ذلك، ونسيت ما عانيت.

ـ ولكن ...

ـ دعي عنك «لكن» هذه، فمثلك ومثل أختك في جمالهما وحسن خلقهما يجب أن يظل أملهما مشرقاً.

ـ إني أعجب من هذا الموقف القاسي تجاه رأيي ورغبتي.

وابتسمت أم محمد وقالت:

ـ أنت تعلمين يا ابنتي أن عاداتنا وتقاليدنا تُلغي رأي المرأة تماماً، وأن أهلها هم الذين يختارون لها من شاؤوا من الأزواج، فهذه ليست مشكلتك أنت وحدك، إنها مشكلة كل النساء في قريتنا، إنني لا أتذكر أن امرأة ممن أعرف قد تزوَّجت برغبتها،

هذه مشكلة عامة لا تختص بواحدة دون أخرى، وإن مَنْشأها بُعد كثيرٍ من الناس عن تطبيق شرع اللَّه تعالى في هذه المسألة.

كان حديث «أم محمد» صادقاً مؤثراً، وكان وقعه على نفس الفتاتين قوياً، فما كادت تنتهي من حديثها حتى أشرق وجهاهما، وطابت نفساهما، وعاد إليهما بصيص من أمل كاد يذوي ويتلاشى.

وما مرَّ ذلك اليوم حتى كبر الأمل في نفسيهما، فها هو ذا «عَوْضَة» أخوهما يأتي بقامته الفارعة، ووجهه العريض المشرب بحمرة، وابتسامته التي سرعان ما تتحول إلى ضحكات عالية يعرفها أهل القرية جيداً، إنه رجل المهمات الصعبة في بيت «القاسم»، بل في القرية كلها، هو الرجل المرافق للجمل في ذهابه وإيابه، ولهذا فإنه معروف عند كثير من الناس من القرى المجاورة البعيدة والقريبة، كان عَوْضَةُ رجلاً مرحاً، تألفه النفوس منذ أن تراه لأول وهلة، وكان رجلاً جلداً قوياً، له مع الجمل وأحماله قصص كثيرة يتناقلها الناس، فإذا ما راودت الجمل وحشيَّتُه وهاج وماج، وأرسل هديره المخيف، فإن عوضة هو الذي يستطيع ـ بإذن اللَّه ـ أن يروِّضه حتى يبرك على الأرض.

دخل عوضة بيت «آل يحيى» وهو يقول ضاحكاً:

ـ سلام عليكم و«العَوْن»، وهذه تحية أَلِفَها أهل القرية وأحبوها فهم يبادرون بها بعضهم بعد السلام، يقول قائلهم «والعون» فيرد عليه الآخر «اللَّه يعينك»، إن عناء الحياة وقسوة مشاغلها جعلتهم يدعون بالعون لبعضهم دائماً.

وردت عليه أم محمد صاحبة المنزل:

ـ وعليك السلام يا عوضة، اللَّه يعينك، هاه ماذا تريد؟

وأرسل ضحكته المميزة، ورفع «مشْعَابه» تلك العصا التي ينحني طرفها، وهزَّها في الفضاء، وقال منشداً:

ـ «نبغي نرد الظبي لأهله... ثم قال: لقد جئت يا أم محمد ومعي «مشعابي» و«جنبيّتي»، أطلب المبارزة فأين أبو محمد..

قالت ـ وهي تخفي ابتسامتها، فهي تعرف أن عوضة كثير المُزاح، ولكنَّ لمزاحه حداً، فكم من مرة تلاشت ابتسامته في طرفة عين، وتحوَّل إلى رجل آخر ترتجف لغضبه القلوب ـ:

ـ كفانا اللَّه شرك يا عوضة، ولكن ترى مالك عندنا شيء، ودخل إلى باحة الدار حيث رأى أختيه، فمشى خطوات وهو يقول:

ـ أريد هاتين الفتاتين.

وما أتم كلمته حتى تهدَّج صوته ووقف في مكانه وزاد احمرار وجهه ثم انخرط في البكاء، وبكت أخـتاه، وبكت أم محمد وهي تقول:

ـ سبحان اللَّه ما أرق قلبك يا عوضة!

هكذا كان عوضة، قوياً إلى حد الجفاء، مرحاً إلى حد العبث، رقيقاً إلى حد البكاء، نعم هكذا عرف الناس «عوضة»، البطل، المرح، الحنون العطوف، ومما يذكر أهل القرية تلك الحادثة التي لا تنسى:

كان عوضة قد وضع على الجمل حمله من حزم الحنطة وجاء بها من الوادي القريب، حتى إذا اقترب من دارهم، وكان بمحاذاة «الصفا» تلك الصخرة العظيمة التي تمثل مع «بيت القاسم» المجاور لها واجهة القرية المميزة، هناك وقف الجمل، أبى على سائسه أن يخطو خطوة واحدة، وحاول عوضة أن يحركه فلم يتحرك، ولما جره بزمامه أرغى الجمل وأزبد ثم ثني أرجله وبرك مكانه، ونظر عوضة إلى «الصفا» فوجد عدداً من رجال القرية جلوساً في مكانهم المعتاد، ففي الصفا مواقع صخور ضخمة معتدلة اتخذها أهل القرية مجلساً لهم يلتقون فيه يراقبون الأودية ويتحدثون في أمور شتى..

رأى عوضة بعض رجال القرية على الصفا، ونظر إلى جمله الذي برك فثارت ثائرته، وصرخ صرخته العظيمة التي يعتزي فيها بنفسه «أنا عوضة»! وأمسك بمشعابه وانهال على الجمل الرابض ضرباً شديداً على رأسه ورقبته، وكادت تتخلع قلوب الرجال الذين يشاهدون ما يجري من هول تلك الضربات وتلك الصرخات، ولم يجرؤ أحدهم على النزول ولا على الكلام مع عوضة، وهاج الجمل وماج، وهاج عوضة كذلك، وعندما همَّ الجمل بالنهوض أمسك عوضة برقبته وأقعده وشعر الناس بالخوف والإعجاب في آن واحد.. ونهض الجمل وقد سال الدم من رأسه وقاده عوضة إلى المنزل، وعند درج بيت القاسم برك الجمل، وجلس عوضة، وجاء إليه الناس، فما كادوا يصلون إليه حتى رأوه يجهش بالبكاء ويقوم إلى الجمل يقبِّل رأسه ويمسح الدم عنه ويبكي ويقول: «قطع اللَّه روحي يا حُمران» وحُمران اسم الجمل .. ووقف الناس أمام مشهد رائع لهذا الرجل العجيب يتذكرون صرخاته القاسية قبل قليل، ويتأملون دموعه ووجهه الحزين الآن وشفقته التي تعبر عن شفافية روحه، فيقولون أما إنك يا عوضة لرجل عجيب!

وقف عوضة قليلاً أمام أختيه ثم قال وهو يحاول الابتسام:

ـ أبشري يا مسفرة أنت لـ «محمد علي» مهما كلَّف الأمر، كانت هذه العبارة لوحدها كفيلةً بأن تزيح الهم عن قلب مسفرة، فعندما يعدها أخوها «عوضة» بذلك فإن هذا الوعد متحقق لا محالة بإذن اللَّه، ولكنها تساءلت وما موقف أعمامي؟

ضحك عوضة قائلاً:

ـ أهم شيء رأي أخيك عوضة، وأخوك يقول إنك لمحمد علي ألا يكفيك هذا؟!

قالت وهي تبتسم:

ـ بلى يكفيني هذا.

وعندما تأمل عوضة وجه أخته ورأى شحوبه قال عبارته الشهيرة:

ـ «قطع اللَّه روحي يا مسفرة»، أبشري بالخير وأنا أخوك.

* * *

حينما كانت مسفرة وأختها تسيران خلف أخيهما بعد مغادرة بيت آل يحيى الذي هربت إليه منذ ثلاثة أسابيع، كانت الشمس قد بدت على قمة الجبل الذي يطل على

obeikandi.com

القـرية مـن جانبها الغربي، وكأنها قــد استقـرت على قمتـه، لم يبق مـن النهار إلا وقت قصير، وعندما نظرت إلى الشمس شعــرت بانقبـاض خـفـيف، إن منظر الغـروب اليـوم يذكـرها بمنظـــر الغـروب في ذلك اليـوم الـذي هربت فـيـه من بيت أهلها بمشــورة مــن خـالتـهـا، وإن الغــروب ليـذكـر بالــوداع، واحـمـــرار وجـه الشـمس عند الغـروب يذكـر باحـمـرار وجـوه الناس عند الحــزن أو الغضـب، لقـد رأت قبل قليل احـمـرار وجـه أخيـهـا حينمـا أجهش بالبكاء، كانت تسـيـر مع أخيـهـا وأختها بجسـدهــا أمـا قلبها فقد كان نهباً لمشـاعر متناقضـة، ومـا أيقظهـا من سيطرة تلك المشـاعر إلا صوت أخيهـا عوضـة يقول لها:

ـ إن عمـاتك وبنات أعـمامك وخالاتك بأشـد الشوق إليك، لقد كان بيتنا برغم كثرة أهله فارغاً بسبب غيابك يا أخيَّه.

قالت مسفرة:

ـ لقـد كانت الدنيـا كلهـا فارغـة بالنسـبة إليَّ، أسـأل اللَّه ألا يحرم الأحبة من لقاء بعضهم.

ثم ســاد الصـمت مـرة أخـرى، فـمــا يُسـمع إلا صــوت خطواتهم، وأصوات الحصى تضطرب تحت أرجلهم..

obeikandl.com

ولاح في ذهن «مسفرة» سؤال: يا ترى لماذا تغيَّر موقف عوضة؟ وما الذي يجعله يقف في صف محمد علي بهذه الصورة؟ لم يتجاوز السؤال ذهنها، فلم تكن لتجرؤ على أن توجهه إلى أخيها، ولم تجد تفسيراً مقنعاً لتبدل موقف أخيها،فصرفت السؤال عن ذهنها وهي تقول:

ستكشف الأيام كل شيء.

لقد تحوَّل «بيت القاسم» إلى مهرجان لقاء أخوي حميم، بين مسفرة وأخواتها وبنات عمها وعماتها وأعمامها، وخالتها فاطمة التي كانت تحب ابنة أختها حباً عظيماً، وتعلم علم اليقين أن «محمد علي» أولى بها من غيره.

ودخلت مسفرة على أحد أعمامها، وكان على فراش المرض بل إن حالته الصحية المتردية جعلتها تشعر أنه «على فراش الموت»..

ثلاثة أيام مضت وأهل البيت منشغلون بمريضهم، ثم انشغلوا بعد ذلك بدفنه واستقبال المعزّين الذين توافدوا من كل مكان.

* * *